(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)**) .

[يونس : ٩ – ١٠] .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**) هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

فهم جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

(**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**) يحتمل أن تكون "الباء" هاهنا سببية فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة .

- **قال السعدي** : فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) أي : تجري من تحت قصورهم الأنهار ، أو من تحت أسرتهم ، وهم مقيمون في جنات النعيم .

- **قال السعدي** : أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**) أي : دعاؤهم في الجنة (سبحانك اللهم) وفي الحديث (يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس) أي كما يتنفس الانسان بدون تعب ، فكلامهم وذكرهم في الجنة تسبيح الله .

(**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ**) أي : أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ ، أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِذَلِكَ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ .

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) ، وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) . وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَمَعْنَى السَّلَامِ : الدُّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ .

وَالتَّحِيَّةُ : مَصْدَرُ حَيَّاكَ اللَّهُ ، بِمَعْنَى أَطَالَ حَيَاتَكَ .

(**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي : وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين .

- والحمد : وصف المحمود بالجميل محبة وتعظيماً .
- رب العالمين : أي : خالقهم ومالكهم ومدبرهم .

قال ابن كثير : هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه

واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال .

- والله يحمد على كل شيء، ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى يحمد على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المرسلون .

قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- قال بعض العلماء إن هذه الكلمة (الحمد لله) كلمة كل شاكر ويدل لذلك :

قول أهل الجنة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) .

وبقول نوح عليه السلام (الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) .

وبقول أهل الجنة أيضاً (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

وبقول إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) .

وبقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) .

الفوائد :

١- فضل الإيمان والعمل الصالح .

٢- يشترط في العمل أن يكون مقبولاً أن يكون صالحاً .

٣- كلما قوي إيمان الشخص كلما ازدات هداية الله له .

٤- من نعيم الجنة جري الأنهار من تحت قصورهم .

٥- أن في الجنة كل أنواع النعيم .

٦- أن تحية أهل الجنة سلام ، وهم في دار السلام .

٧- أن الله يحمد على كل شيء .

٨-بيان استحقاق لله تعالى للحمد لله .

٩-إثبات الربوبية لله تعالى .

والرب من أسماء الله تعالى ، قال ﷺ (وأما الركوع فعظموا فيه الرب) وقال ﷺ (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١)) .

[يونس : ١١] .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر ، وفيما عليهم فيه مضرة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به لقضي إليهم أجلهم .

- يُعَجِّلُ من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء.

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة. وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره.

- والمراد بالناس هنا – عند عدد من المفسرين – : المشركون الذي وصفهم الله تعالى قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول ﷺ في نزول العذاب .

قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) .

والمعنى : ولو يعجل الله – تعالى – لهؤلاء المشركين العقوبة التي طلبوها ، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي : لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله تعالى الرحيم بخلقه ، الحكيم في أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التي طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل في الإسلام ، ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لوناً من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم.

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه في تفسيرهم ابن كثير .

- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم –والحالة هذه – لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) فيه وجهان :

أحدهما : ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ، قاله ابن إسحاق.

الثاني : معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول : لا بارك الله فيه وأهلكه الله ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا.

فيكون تأويلاً على الوجه الأول خاصاً في الكافر ، وعلى الوجه الثاني عاماً في المسلم والكافر.

- **قال القرطبي** : فالآية نزلت ذامّة لخُلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا.
- **قال الرازي** : ... أنه تعالى سمى العذاب شراً في هذه الآية ، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في

قوله : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة) وفي قوله (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) .

(**فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**) أي : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج في الدنيا في طغيانهم يتحيرون ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر.

أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله، (فِي طُغْيَانِهِمْ) أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

(**يَعْمَهُونَ**) يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

الفوائد :

١- رحمة الله ولطفه تعالى بعباده .

٢- أن الله لا يعجل العذاب على الناس لحكمة .

٣- أن الله لو يؤاخذ الناس بأعمالهم لأهلكهم .

٤- أن من أسباب الطغيان عدم الإيمان بلقاء الله .

٥- أن الإيمان بلقاء الله سبب للاطمئنان .

(**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢)**) .

[يونس : ١٢] .

(**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ**) أي : وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقر أو نحو ذلك .

(**دَعَانَا**) بإلحاح وتضرع لكي نكشفه عنه .

(**لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا**) أي : دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً او قاعداً او قائماً ، لكشف ذلك الضر عنه .

- **قال ابن الجوزي** : واللام في قوله (لجنبه) بمعنى "على".
- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء (مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً) وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة.
- **وقال الشوكاني** : قوله تعالى (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وكأنه قال : دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود ، وقاعداً غير قادر على القيام ، وقائماً غير قادر على المشي ، والأوّل : أولى .
- **قال الرازي** : فإن قالوا : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلنا : معناه : إن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر ، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً.

(**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ**) أي : فلما أزلنا ما به من ضر استمر على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الشدة ، ويغفل عنه عند العافية .

(**مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ**) مضى واستمر في غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كروب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ) أي : استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

قلت: وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره .

- **قال الشوكاني** : وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر ، بل تتفق لكثير من المسلمين ، تلين ألسنهم بالدعاء وقلبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم . فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ، ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ، ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء ، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ، ولا نقدر على غيره ، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) .
- **قال الرازي** : المقصود من هذه الآية ، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة والمنحة ، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية.

حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحن

(**كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي : كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملونه من الإعراض عن الهدى ، ومتابعة الشهوات .

- **قال ابن كثير** : فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى (إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وكقول رسول الله ﷺ (عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له"، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن) .

الفوائد :

١-ذم من يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة .

٢- أن اللائق بحال الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) .

٣- وجوب الرجوع الى الله في الضراء والسراء .

٤- أنه لا يكشف الضر إلا الله .

٥- شدة طغيان ابن آدم حيث ينسى ربه وقت السراء .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)) .

[يونس : ١٣] .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ) أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغى والضلال .

فالمراد بالظلم هنا الشرك .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ) مثل قوم نوح. وعاد ، وثمود ، وهو جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران كأن أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم ، وقيل : القرن أربعون سنة وقيل : ثمانون وقيل مائة وقيل هو مطلق الزمان ، والمراد هنا المعنى الأول وكذا في قوله ﷺ : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " وقوله :إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم...
- **قال ابن عطية** : هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم ، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم .
- **وقال ابن عاشور** : وهذه الآية تهديد وموعظة بما حل بأمثالهم.

(وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) الواضحات التي تدل على صدقهم .

(وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ) أي : وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي : أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب اهلاكهم شيئان : ظلمهم ، وعدم ايمانهم .

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أي : مثل ذلك الجزاء - يعني الاهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ .

الفوائد :

١- في هذه الآية يخبر الله تعالى أنه أهلك كثيراً من القرى بسبب ظلمهم وشركهم بعدما قامت عليهم الحجة .

وما ذكره الله تعالى هنا من أنه أهلك كثيراً من القرى أخبر به في آيات كثيرة.

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ...).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً).

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ).

قال تعالى (وكم من قرية أهلكناها ...) .

وأخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

كما قال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وقال تعالى (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً).

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ).

وأخبر تعالى أنه لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

وأخبر سبحانه أنه يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)) .

[يونس : ١٤] .

(**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم**) أي : ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة ، من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها .

(**لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**) أي لننظر أتعملون خيراً ام شراً فنجازيكم على حسب عملكم ، قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر اظهاراً للعدل .

- **قال الرازي** : لخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم، لننظر كيف تعملون، خيراً أو شراً، فنعاملكم على حسب عملكم.
- **وقال في التسهيل** : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة والغرض ان الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك ، ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ، ما علمه تعالى أزلا .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم).

وقال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).

وقال تعالى (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إن الدنيا حُلْوَة خَضِرَة وإن الله مُسْتَخْلِفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).

الفوائد :

١- أن الله قد استخلف الناس في هذه الدنيا للاختبار والابتلاء .

فعبادة الله وإحسان العمل هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم .

٢- الحكمة من هذه الدنيا الابتلاء والاختبار .

٣- وجوب الابتعاد عن الفتن وأسبابها ، وقد جاء في الحديث (إن السعيد لمن جنب الفتن) رواه أبو داود .

٤- الحرص على الجد والاجتهاد في هذه الدار الفانية بالعمل الصالح .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦)) .

[يونس : ١٥- ١٦] .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) أي: وإذا قُرِئَ على مُشرِكي قُريشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهَتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِب .

- **قال الجزائري** : قوله تعالى (إئت بقرآن غير هذا) أي بأن يكون خالياً من عيب آلهتنا وانتقاصها . أو أبقه ولكن بدل كلماته بما يسونا فاجعل مكان آية فيها ما يسوءنا آية أخرى لا إساءة فيها لنا .

وقولهم هذا إما أن يكون من باب التحدي ، أو الاستهزاء والسخرية ، وإما أن يكون من باب توهمهم أن الرسول ﷺ يأتي به من تلقاء نفسه إلا أن هذا الاحتمال ضعيف .

- **قال الماوردي** : وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم سألوه الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، قاله ابن جرير الطبري.

الثاني : أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، قاله ابن عيسى.

الثالث : أنه سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، قاله الزجاج.

- **وقال الجصاص** : وَكَانَ سُؤَالُهُمْ لِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالتَّحَكُّمِ ؛ إذْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَوْقُوفًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ ، أَوْ يُبَدِّلَهُ بِقَوْلِهِمْ لَقَالُوا فِي الثَّانِي مِثْلَهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّالِثِ مِثْلَهُ فِي الثَّانِي فَكَانَ يَصِيرُ دَلَائِلُ اللَّهِ تَعَالَى تَابِعَةً لِمَقَاصِدِ السُّفَهَاءِ ، وَقَدْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُقْنِعُهُمْ ذَلِكَ مَعَ عَجْزِهِمْ فَالثَّانِي وَالثَّالِثُ مِثْلُهُ.

- **قال ابن الجوزي** : والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه.

(**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي**) أي: قل لهم يا محمد: ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير او أبدل شيئاً من قبل نفسي.

(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**) أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبِعَ ما يُوحيه اللهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تَحريفٍ

(**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي**) بتبديل كلامه .

(**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوال .

- يوم القيامة يوم رهيب عظيم .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

وقال تعالى (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) .

- وهذا كالتعليل لما سبق .

(**قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ**) **أي** : قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غَيرِه .

(**وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ**) أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكِنَّه أدْراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غَيري .

(**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مَكَّةَ- حينًا طويلًا مِن عُمُري- أربعينَ سنةً- قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى .

الفوائد :

١- مشروعية تلاوة كتاب الله على الناس .

٢- أن عدم الإيمان بلقاء الله سبب للتكذيب والتعنت .

٣- وجوب الإيمان بلقاء الله .

٤- أن القرآن وحي من الله لرسوله .

٥- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يغير شيئاً من القرآن ، لأنه مبلغ عن الله .

٦-تخويف العصاة بيوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال .

٧- أن يوم القيامة يوم عظيم .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)) .

[يونس : ١٧] .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) وتَقَوّل على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظُلما من هذا .

ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذباً ، فلا بد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برّهِ أو فُجُوره ما وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنة الله لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدّل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي.

قال عبد الله بن سلام (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول : يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام) .

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء؟ قال: "الله". قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: "الله". قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: "الله". قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة.

(أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) وكذلك من كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث : أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتله نبي .

فالتكذيب بآيات الله عدم تصديقها .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .

- والآية تطلق في القرآن على معنيين:

الأول : آيات كونية : (وهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله – جل وعلا – ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

القسم الثاني : آيات شرعية (وهي الوحي المنزل) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

والتكذيب بها بعدم تصديقها .

(**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ**) أي : لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام ، وكذب الرسل الكرام .

والمجرمون جمعُ المجرِم، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ .

الفوائد :

١- أنه لا أظلم ممن كذب الله .

٢- شدة ذنب من كذب على الله .

٣- أن الكذب درجات ، فأعظمه الكذب على الله ، ثم الكذب على رسوله .

٤- ومن أعظم الظلم أيضاً الكذب في آيات الله .

٥- وجوب الإيمان بآيات الله .

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)**) .

[يونس : ١٨] .

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**) أي : ويَعبُدُ المشرِكونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها ، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك.

- والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون مثيباً على الطاعة ومعاقباً على المعصية.

كما قال تعالى (ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون) .

وقال تعالى (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم) .

وقال سُبحانه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين) .

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف :

الأولى : عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة .

الثانية : أنهم غافلون عن دعائهم ، إما لأنهم أموات ، أو جماد لا إحساس لهم ، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه

الثالثة: أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة : أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها .

قال البيضاوي رحمه الله : هذا إنكار أن يكون أحدٌ أضل من المشركين ، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم ، فضلاً أن يعلم سرائرهم ، ويراعي مصالحهم .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

والقطمير : هو اللفافة التي تكون على نواة التمر ، فنفى الله عنهم مِلكَ شيء حقير ، وهو القطمير ، فأيّ لهم مُلك ما فوقه ، والله تعالى له الملك كله .

ففي هذه الآيات يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه . من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها . مما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، **وهي** :

الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على الاستجابة .

فمتى لم توجد هذه الشروط تامّة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت بالكلية .

فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) [القطمير : اللفافة التي تكون على نواة التمر] .

أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعني الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات ، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له ، أو جماد .

ولأنه قد يقول المشرك : هذا في الأصنام ، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون .

فنفى سبحانه ذلك بقوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أي : لا يقدرون على ما تطلبونه منكم

وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرؤون منكم .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون) .

- بين الله تعالى في هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله ، **وهي أربعة** :

١. أنهم لا يخلقون شيئاً .

٢. أنهم مخلوقون مربوبون .

٣. أنهم لا يستطيعون لهم نصراً .

٤. أنهم لا ينصرون أنفسهم .

وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) .

- يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين على وجه التحدي : اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنها تنفعكم وتكشف الضر عنكم ، فإنهم لا يقدرون على ذلك .

لأنه لا بد من توفر أربعة شروط في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه ، **وهم** :

الشرط الأول : الملك .

وقد نفاه الله **بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا الأرض)** .

الشرط الثاني : إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك .

وقد نفاه الله **بقوله (ومالهم فيهما من شرك)** .

الشرط الثالث : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك ، فيكون عوناً ووزيراً .

وقد نفاه الله **بقوله (وماله منهم من ظهير)** .

الشرط الرابع : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً ، فيكون شفيعاً .

وقد نفى الله الشفاعة عنده إلا بإذنه .

فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله ، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة .

كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً) .

(**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) أي: ويقولُ المشرِكونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله .

والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره في دفع ضرر أو جلب نفع.

أي : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله في دنيانا ، بأن نتوسل إليه بها في إصلاح معاشنا ، وفي آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة.

(**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع ، كائن في السموات أو الارض ، لا يعلمه جل وعلا ؟ وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم .

ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال :

(**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ له شريك .

الفوائد :

١- تحريم عبادة غير الله من الأصنام وغيرها .

٢- بطلان عبادة الأصنام ، حيث أنها لا تنفع ولا تضر .

٣- أن المستحق للعبادة هو من ينفع ويضر وقادر ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى .

٤- ادعاء الكفار أن الأصنام إنما يعبدونها لتكون لهم شفعاء .

٥- الشفاعة لله جميعاً .

٦- تنزيه الله عن كل شرك أو نقص أو عيب .